تشتق من أصل واحد ، يدل على عاهة جسمانية ثلاث كلمات مختلفة (تدل على الصمم ، والبكم ، والحماقة) وذلك بتعديل عناصره الصوتية[51] .

(وترى الشتائم في كثير من اللغات ، تصاب بشيء من التشوه ، المقصود ، الذي يمكن من ادخالها في أرقى الأوساط)[52] .

ونحن نقول في عاميتنا : (يا نهار أحوس — يا خراشي — يخيشك) بدلا من (يا نهار أسود — يا خرابي — يخيبك) كل ذلك للتخفيف من حدتها .

أما موضوعات التشاؤم كالموت ، والخوف من الجن ، والأمراض الخبيثة فنلاحظ المجاز ، والكناية عنها ، واستعمال عبارات تشير إلى الخوف أو تقلب معناها إلى ما يتمنى من الخير .

فالموت — في أكثر اللغات — يكنى عنه بالذهاب ، وفي العربية تستعمل لفظة (الوفاة) وهي مشتقة من (الوفاء) أي رد ما يستحق الآخرون عند الانسان ويعبر عنه بعبارات كثيرة مثل : أفلت شمسه ، صعد إلى بارئه[53] ، لبّى داعي ربه .

ويكنى عن الحصبة في العامية المصرية بـ(المبروكة) .

ويعرض الناس — عادة — عن ذكر الأمراض الخبيثة ، كالسل والسرطان ويدخلون في كلامهم عبارات لازالة مفهومها القاسي مثل : ربنا يكفينا شره — والعياذ بالله — الخ ويستعيذون بالله من الأرواح الشريرة[54] .

وجهة اليسار جهة يتشاءم منها ، وكأنها جهة القوى الخفية ، التي لا يراد ايقاظها (لذلك كثيرا ما قضي بالتحريم على اسم اليسار ، وكانت نتيجة هذا التحريم الاضطرار إلى استعمال العبارات الملفوفة ، والاستعارات للتعبير عن اليسار)[55] .

وهناك الأمور الغيبية ، والعالم غير المنظور الذي يقتضي عبارات خاصة (فالرقي السحرية التي نعثر عليها في قبور اليونان ، وايطاليا ، وافريقية مكتوبة على ألواح من الرصاص ، تطبق في غالب الأحيان ، هذه الخطط نفسها : استعمال الكلمات الأجنبية ، أو تشويه الكلمات الأهلية ، ولكن الباعث هنا يختلف ، إذ يبغون من وراء ذلك الاتصال بالعالم الآخر ، ومن ثم يدخلون في تحرير النص اعتبارات لا صلة لها باللغة[56] .

---

(51) نفسه ص 282 .
(52) نفسه
(53) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 184 ، 185 ، وانظر : فندريس : اللغة ص 28 ، ود. السعران : اللغة والمجتمع ص 130 .
(54) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 131 .
(55) فندريس : اللغة ص 281 .
(56) نفسه ص 321 ، وانظر أيضا ص 322 — 325 .

المنافسة بين اللهجات واللغات

1 – المنافسة بين اللهجات :

يحتاج الناس إلى اتصال بعضهم ببعض ، أفرادا ، وجماعات ، وأمما . ولهذا الاتصال آثاره اللغوية ، فلهجات ولغات تلك الجماعات والأمم تتلاقى ، ويستفيد بعضها من بعض .

والتأثر الذي يعتري لهجات اللغة الواحدة ، قد يبدو عاديا حين لا يكون الاختلاط بين الطبقات كبيرا ، كلهجات القرى والمدن ، في أية دولة ، فلكل منها سمات تمتاز بها عن الأخرى ، وبينها اشتراك في مظاهر كثيرة ، تستمدها من اللغة العامة ، ولذا لا تستعصي احداها على الفهم خارج حدودها ، اللهم إلا في حالات العزلة التي تعيش فيها بعض القرى والأماكن النائية أو الأقاليم التي تفصلها عن بعضها عن بعض ظروف جغرافية واجتماعية ، فإنها تؤدي إلى ظهور سمات تنفرد بها لهجاتها ، وقد تستعصي على فهم غيرها من البلاد النائية عنها قرية كانت أو مدينة .

وحين تتجاور اللهجات الخاصة في المدن الكبرى ، والقرى المجاورة لها ، تزيد درجات التأثر ، ففي داخل المدن يكثر الاختلاط بين الطبقات ، ويحاول الأدنى تقليد الأرقى ، ومع ذلك تبقى لكل لهجة خصائصها المميزة .

وسكان القرى المجاورة للمدن يحاولون التخلي عن خصائص لهجاتهم وتقليد لهجات المدينة ، لأن حضارة أهل المدن ، وثقافتهم تجعل الرغبة في تقليدهم ملحة لدى الريفيين .

وقد أجريت بحوث في هذا الحقل أوضحت عوامل تفوق لهجة على أخرى ، وهي تعود – في بعضها – إلى الثقافة والحضارة ، والنفوذ والسلطان ، وعدد الناطقين ونحو ذلك .

فإذا انفردت احداها بمزية ، بأن كانت أكثر ثقافة أو حضارة أو ذات نفوذ سياسي أو تجاري أو ديني واسع أو كثر عدد الناطقين بها فإن ذلك يدعو إلى تغلبها على اختها أو أخواتها من اللهجات الأخرى .

وقد حدث هذا كثيرا في التاريخ اللغوي .

فاللاتينية التي صارت لغة ايطاليا المشتركة ، وأخيرا لغة العالم الغربي بأسره ، كانت لغة روما أولا وقبل كل شيء أي لغة المدينة في مقابلة لغة الريف المجاور ، واللهجات القاصية على السواء[1] .

واللهجة الباريسية ، أصبحت لغة فرنسا ، بتغلبها على اللهجات الأخرى (فالفرنسية انما خرجت من العاصمة ، ومن طبقة اجتماعية بعينها من طبقات العاصمة ، وهي البرجوازية .. وقد استقرت في القرن التاسع عشر ، وسلم بها القصر ، ثم الأقاليم ، والكتاب الكبار باستعمالهم إياها زودوها بالقدرة على فرض نفسها نهائيا ، وعلى استمرارها لذلك لا تكاد تحس فيها أثرا للهجات)[2] .

ولهجة فلورنسا كانت مزاياها الذاتية ترشحها أكثر من غيرها للقيام بدور اللغة المشتركة إذ كانت أقرب من غيرها إلى اللاتينية[3] .

ولهجة فلورنسا (في ايطاليا) – لهجة المجتمع الراقي بهذه المدينة – هي التي صارت لغة ايطاليا[4] .

(1) فندريس : اللغة ص 329 .
(2) نفسه ص 330 .
(3) نفسه ص 335 .
(4) نفسه ص 325 .

ولهجة قريش تغلبت على سائر لهجات الجزيرة العربية ، قبل الإسلام لتحقق النفوذ السياسي ، والاقتصادي ، والديني لها .

ويمكن أن تنشأ على اثر ذلك لغة مشتركة تحمل خصائص اللهجة المتغلبة ، وما بقي من خصائص اللهجات الأخرى المندحرة .

وهذا التوحد اللغوي يخضع لعوامل كثيرة أهمها :

1) العامل السياسي :

فخضوع عدة مناطق لنظام سياسي واحد ، يؤدي إلى تقارب لهجاتها ، ثم توحدها في لغة عامة ، فالساسة والحكام يجردون أحاديثهم العامة في مختلف المناطق من المظاهر الصوتية ، والصوفية ، والمعجمية ، وغيرها مما يختص بلهجة قرية أو مدينة معينة ، أو طائفة حرفية ، حتّى ولو كان الحاكم من أبنائها ، ليكون ما يوجه إلى الشعب مفهوما لدى كل الطبقات الاجتماعية .

وتلاحظ أن عاصمة الدولة تكون محط أنظار قاطني المناطق الأخرى ، فيحاولون تقليد لهجتها ، والتخلي عن ما تنفرد به لهجاتهم الأصلية .

ومن هنا تنشأ لغة عامة خالية إلى حد كبير من خصائص اللهجات المحلية .

ويمكن أن تمثل لذلك بامتداد نفوذ الفرنسية ، التي كانت لهجة باريس ، ثم انتشرت في جميع البلاد الداخلة في المجال السياسي الفرنسي ، واللاتينية صارت لغة ايطاليا المشتركة وأخيرا لغة العالم الغربي بأسره[5] تبعا للنظام السياسي ، وذلك في الامبراطورية الرومانية القديمة[6] .

وعدم خضوع الدولة لنظام سياسي واحد يضع الصعوبات في طريق التوحد اللغوي (فألمانيا التي ظلت قرونا ولايات مستقلة سياسيا وبدون عاصمة مثل على عرقلة الحالة السياسية لظهور لغة عامة)[7] .

وكانت تبدو آثار اللهجات المحلية في عامية متعلمي الألمان ، حتّى في أيامنا هذه أكثر من غيرها من البلاد الأوربية[6] (ولذا قام انتشار اللغة الألمانية المشتركة فيها على أسباب مستقلة عن كل وخذة سياسية ، فالألمانية المشتركة أولا وقبل كل شيء لغة كتابة تدين بنجاحها إلى أسباب دينية ، كما تدين بأصلها إلى الرغبة في الاستعمار ، وكانت هناك حركة مارتن لوثر ، وترجمته للكتاب المقدس ، وهناك لغة المستشاريات في المدن والامارات الألمانية ، والالمانية كانت تحتل الأراضي السلافية قدما بقدم ، وتحل محل اللغات السلافية فتكونت الألمانية المشتركة ، في مدن الاستعمار في ألمانيا الشرقية ، تلك اللغة التي وصلت بفضل الاصلاح الديني إلى أهميتها الأدبية واستقرت بفضل اكتشاف المطبعة ، وصارت لغة الكتابة في ألمانيا المثقفة بأسرها[7] .

2 – العامل الاجتماعي والاقتصادي :

تقوم بين جماعات الشعب روابط النسب ، والمصاهرة ، ويلتقون للتجارة ، وتبادل المنافع في شتّى المجالات ، وقد تنشب بينهم المنازعات وهذا يؤدي إلى اختلاطهم ، وقوة الاتصال بينهم ، ولذلك أثره في التقريب بين اللهجات وظهور لغة عامة تتخلص من السمات التي تنفرد بها كل لهجة .

ومن الأمثلة التي توضح اثر هذا العامل ما حدث للهجات الجزيرة العربية من توحد – في لغة عامة – قبل الاسلام بحوالي قرن ونصف أو قرنين من الزمان لما كان بين أهلها العرب من ارتباط في النسب وعلاقات المصاهرة الوثيقة ، والجوار ، والتعامل التجاري وغيره من الصلات الاجتماعية .

(5) نفسه ص 329 .
(6) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 174 .
(7) فندريس : اللغة ص 333 ، 334 .